الحياة الفكرية

في عهد الشدة وعصر الاستقرار

لناير أرقم

من الشائع المتعارف ان عصر السمو الفكري والتفوق الفني والنبوغ الادبي في حياة الامم وسير الحضارات ليست هي الاوقات الممتازة من الناحية الخلقية او من الوجهة السياسية ، وقد اشتدت النابة بالادب وكثر تذوق الفن ونظم الاقبال على صنوف العلم في أغلب نهضات الامم ووثباتها المأثورة بعد انتهاء عهد الضعف الوطني وانتصار السياسي ، وكانت تلك الحياة الفكرية الخصبة نتيجة متطورة من تأثيه وثمرة مرتقبة من ثمراته ، فأثينا واسبارطا لم يخرجا أبدع طرائفهما الادبية وأنفس آيات فنهما في عصر اكتمال قوتهما السياسي وفي ريعان عزتهما القومية ، وفي عصر بركليس لما أخذت تظهر بوادر الضعف وتتشور علامات التدهور والانحلال كثر التهافت على الفن وذاع التعلق بالادب والاقبال على العلم كأنه تعزية لازمة محتومة وعلامة واضحة الدلالة على بدء نضوب القوة القديمة ونفاد الجعبة الكاملة ، وكذلك كان الحال في روما ، وذلك أنها لما لانت قرنها وثبت القانون وتوطد النظام واستتبت الاسوار وزرقت الطبائع الثائرة ولطفت الامزجة الجامحة ساد الفن وعم الادب وازدهر الرأي وراجت الحياة الفكرية ، وقد جاء هوميروس في العصور الاولى ليتغنى بأمجاد الاقدمين كما جاء شكسبير في ختام العصور الوسطى ليروي لنا نفسية الانسان في عالم عصره بما فيه من شهوات ونزعات وميول ولعدنا ما كان في حياة أهل عصره من أنانية الطول والشكاهة والمجون والدعابة ولما انتهى عصر الاقطاع وازدهر الوضاءون وكتاب السير وروايات الشطار ونظائرها ، وكذلك عصر الامن والهدوء والحياة رضية بذلك اذ كان الناس في الاقاليم المختلفة لا يعتقدون مضطربا بما في أشد الازمات والحادث ما بين مصدات البحر ومصدرات الجبال حتى جبالها الشم من خطر الاتصال بالغاز والاقباس من قضاء وثبات من عصر الى عصر وثروته الهادمة ، وكان السلام مزرقة في روعها فلا تشعر على الزاد ولا تتوثر على البيت والغذاء ومنتى أوب الاحراء صيد الى ما من ليل العزيز الفتح وسلة من أزواق الارواح. وقد ولد في ذلك العصر الهادئ الوديع [illegible] وغزل عليه

وحي حكمته وهو جالس تحت ظلال شجرة «البو» الجميلة فكانت البوذية ثمرة تلك الحياة الوادعة الحالمة الشبيهة بظلال الخيال ومخبرات الاماني والآمال ، وقد يدعونا ذلك الى ان نستخلص ان الحياة الفكرية تنمو وتزهر حيث تتمكن الحضارة وتستقر الحياة ويأمن الناس صولة الثورات وطوارىء الحدثان ويظفرون في هذا الامن الشامل بالهدوء الذهني والفراغ اللازمين لظهور بدائع الفن وطرف الادب ، وما دام الفن يحتاج الى الاتقان والتجويد والاناة واعمال الفكرة والانصراف عن الشواغل في العالم الخارجي فاحر بأيام الطمأنينة والهدوء ان تكون عصوراً ذهبية للادب والفن

ولكن اذا كانت عصور الهدوء والاستقرار صالحة للادب والفن منشطة لسير الفكر فهل أوقات الثورات العاتية والانقلابات العاصفة معوقة للادب قاضية على الفن ؟ وهل هي حقيقة تسلب رجال الفكر ونوابغ الفنون الهدوء الفكري والرزانة والاتزان وتحول بينهم وبين متعة الفراغ الكافي لنماء آيات الفن العظيمة ؟ لسنا نجد في التاريخ أدلة كثيرة تثبت ذلك وتنهض به بل قد نلتقي في التاريخ بحقائق تنقضهُ ، فان أوقات الثورات والانقلابات تستفز المشاعر وتهز النفوس هزاً عنيفاً وتحرك أوتار القلوب وتثير دوافع الجرائم وتستجيش عوامل الهمم فتقوى الخواطر وتتفتح العقول وتشحذ الاحاسيس ويتبع ذلك ظهور نوع من الادب الحر القوي المفعم بالرجولة ، وكثيراً ما كانت أيام الحروب والثورات مبثاً لجلائل المبتكرات وأنضج ثمرات العقول ، وقد كان القرن السادس عشر مثلاً من القرون الخاصة بالثورات وضروب الحروب المذهبية الدينية والمعارك السياسية الاجتماعية والمجادلات العلمية الادبية وكان في نفس الوقت عصر نهضة جمت جوانبها وفاض معينها وتناعيك بقرن يحتشد فيه من أعيان الانسانية وأقطاب الفكر أمثال لوثر المصلح ورافائيل ومشيل انجلو والشاعر اريستو والكاتب مونتين والعلامة إراسموس ومن العلماء أمثال جاليليو وكوبرنيكس والفيلسوف فانيني وغيرهم من أساطين الفكر وجبابرة العقول وقد انتفضت في ذلك القرن فروع الحياة الفكرية جميعها ووجد كل فن معبراً عنهُ وممثلاً له وكانت ايطاليا حينذاك بخاصة من بين دول أوروبا ممزقة الاوصال مصدوعة الوحدة مسرحاً للفوضى والجرائم المنكرة وأفاعيل القسوة ولكنها كانت في عين الوقت استاذة أوربا وحاملة لواء الحركة الفكرية

وقد مرت بنا نهضتها الادبية العجيبة في أوائل القرن التاسع عشر وفي ظروف عصيبة وعهود عاصفة وكانت بمثابة الشعل متقدة الاجزاء مجروحة العزة القومية وقد أتم فيلسوفها الكبير هيجل كتابه « ظاهرة العقل » وبنابليون النابليونية تدوي في أذنيه وقائد فيلسوفها نفث تحيه وهو يذود عن وطنه ويثير حمية تلاميذه وأتباعه ، وقد قويت في ذلك الوقت البضة الفكرية في المانيا فنبغ مذاهب فلسفية عظيمة كأروع ما عرفت الفلسفة ومن آراء طريفة في التاريخ والنقد الى نظريات أصيلة في اللغة والعلوم ، وقد كان مجيئاً ظهور تلك النهضة الرائعة في المانيا التي صرعتها الحوادث وأساء اليها الدهر ولكن أوقات الاضطرابات والثورات من شأنها ان تثير

القلب وتحرك رواكده وتبعث كوامنه فيظهر من النفس كل خفي ويتكشف كل كنز دفين وتتفتح أزاهير الروح الداخلية وتخرج من المبتكرات العظيمة والمنشآت الفنية الخالدة كما خرج هذا العالم الذهبي من جوف الحوباء القديم والفوضى السالفة، وكأن الحركة العامة الشاملة والاضطراب السائد والقلق المستحوذ يرمف الخواطر ويفض اغلاق النفوس فتسخو بقوتها الموفورة وتجود بثراثها الجم المدخر، ولئن كانت حياة الدعة والاستقرار تريح الفكر وتمنحه الهدوء إلا أنها تقله وتخضعه للنظم والقوانين وتحصره في حدود العرف الشائع والرأي العام الدائع، اما في أوقات الاضطرابات فان العقول تجد مراحاً تنطلق فيه كما شاءت لها طبيعتها إذ يقل ضغط الروابط الاجتماعية وتتحطم اغلال العرف وقيود المصطلحات وغير عجيب ان تجود تلك الازمنة بكل نفس ثائرة هدامة خارجة عن الفرائض المرعية في الدين والآداب والاساليب المتبعة في الفكر والمناهج المألوفة في الفن، ولقد كانت الديانة المسيحية السامية وليدة ثورة من أشنع هذه الثورات ونبت عصر من أشد عصور الاضطرابات. وكذلك نشأت الديانة الاسلامية خلال العواصف والقلاقل ولذلك جاء المتنبي والمعري في أزمنة انحلال وقد تزلزلت روامي الحياة وتداعت اركان الحضارة

في عصور الاستقرار يسود نوع خاص من الفكر وفي عهود المشادة ينبعث نوع آخر مغاير له، فأدب عصور الاستقرار يمتاز بجودة الصناعة وحسن الصقل وبراعة الاتزان وانسجام التأليف ولكنه خال من الحيوية القوية والروح المتوثبة، وأدب عصور المشادة يمتاز بقوته وشدة اسره وعمقه وغزارته وبعيد ابتكاراته وطريف مخترعاته، وفي ازمنة الاستقرار يتصور الناس ان الفن حلية على جيد الحياة وان الادب تسلية تقطع بها ساعات الفراغ ويرجى بها السأم وان العلم نوع من الرفه، أما أزمنة المشادة فينضب من أدبها روح الجد ونزعة الجهاد البعد عن الزخارف وعدم تكلف الصنعة، وفي اوقات الاستقرار تسود افكار معتدلة لا شذوذ فيها ولا مغالاة ولكن في أيام المشادة والانفعالات تظهر الافكار الكبيرة وكأن الغرض في تلك الازمنة الخروج عن مداراتها المألوفة فليس شيئاً من اسرار الحياة المحجبة وغرائبه المستورة وبحور لجاته من الابدية الخفية ويهبط عليها نوع من حكمة الوحي وقداسة الالهام ويظهر في تلك الفترة الجليل والسخيف والرائع والمضحك وتتجلى المتناقضات والحوارق والمعجزات وتتمازج اشد الوان الريح المختلفة وتواميها المتناقضة وقد ظهرت في العصر الذي ارسل فيه المتنبي حكمه الخالدة في مسمع الايام حماقات الشاعر ابن سكرة ومسخ فات ابن حجاج

وعهود الاستقرار عهود الزان وانسجام تنفرض اعمالها هادئة مطمئنة غير مأخوذة بروعة المجهول ولا سكرى بنشوة الجهاد والمكافحة. ولتوضيح ذلك سأوازن بين شاعر يمثل عصراً من عصور الاستقرار النسبي كالبحتري وآخر يمثل عصراً من عصور المشادة والقلق مثل المتنبي، والبحتري والمتنبي شاعران متناقضان في كل شيء، البحتري رجل حضارة نهر سلس الطباع غير ناقم ولا منحط والمتنبي ثائر الطبع غير مستقر النفس، والاول يجيء في عصور الاتزان

وقد استفاضت الحضارة واسبغت ظلها . والثاني لا يقبل الى الدنيا الا في اوائل الحضارة او في نهايتها ، في ثورة التكوين او في اضطراب الانحلال ، والبحتري أتقى صياغة وأرشق معرضاً ولكن المتنبي يدهشك من هيئات اسلوبه ويغرب فيه بقوة روحه وشدة طبعه ، وقد ظهر الاول والخلافة لم تذهب بعد هيبتها ولم تصلب العواصف بقوتها فكانت شخصية الخليفة تستغرق كل الشخصيات وتميل عليها وتبسط ظلها فوقها . ولكن الثاني جاء في وقت ملكيات محدودة متعددة الاشياء والنظائر فنمت شخصيته ولم تجد قوة تصدها وتهزمها ولذا ترى الاول يتقاسى شخصيته ويفنى في شخصية ممدوحه بينما المتنبي يقبض على ممدوحه من صفات نفسه وشمائلها وتنسج له حلة من خياله، والاول كالبحيرة هادئة تحرك عليها النسائم عذب مياهها وتحدث بها موجات لطيفة هادئة . والثاني كالبركان الثائر يقذف بالحمم المستمرة ويصب عليه الألم الدائم والشكوى المستمرة وسوء الظن بالبشر والتقلب بين السخط الثوري عليهم والكره الشديد لهم والبحتري ناعم بالملوك لشوائه عامر بالذات اوقاته وأحدها نفس راضية والثاني نفس معذبة لا تأوي الى ظل من الامن ولا تستقر على راحة

وترى في شعر كل منهما صورة من عصره ، فالبحتري ينظر الى الاشياء القريبة المنال الدانية من الفهم ويتجنب كل ما يحسر الفكر ويكد الذهن ويراعي في شعره موازنة عجز البيت بصدره ويدخر الكلمات الرشيقة والالفاظ الطلية ليقفل بها القافية ويحاول ان يوجد توازناً ملحوظاً بين الفكرة والتعبير عنها ويقدر لذة الاذن وسعة السمع فيتخير الالفاظ الرقيقة المهذبة ويطرح الغريب الوحشي والحشو والزوائد في شعره بلاغة وبراعة وتخلله موسيقية هادئة منسجمة وأوضح صفاته التناسق والسلاسة لا الحرارة وقوة الروح وعبقريته عبقرية متزنة وليست عبقرية متقدمة جريئة كعبقرية المتنبي ، وعواطفه هادئة لا تتعامى الى الحدود البعيدة والغايات القاصية فهو يقف بالحد قبل كل شيء ولوع بالزينة والتظرف وانتقاء العبارات السائغة المقبولة ، وهو يحس في نفسه مشاعر ويكظم فيها اهواء ولا يرضى الوجود والحياة لكل فكرة تمر بخاطره وعاطفة تختلج نفسه وهو يقنن الافكار التي اقرها المجتمع واصطلح عليها العرف حتى لا يصطدم بمعتقد ولا يخرج معتقداً وذلك للمح في استهانة المتنبي بأوضاع اللغة وشذوذه عن القياس مع جريانه على [illegible] وضعفه هو فوضى عصره وشذوذه ولكنك تسمع خلال شعره نبضات قلب كبير وزفرات روح طموحة لم تنل ولم تذلل وهو يأخذ الحياة مأخذ الجد فلا يكثر في شعره من التجمل والزخرف ولا يجري وراء المحسنات والرقائق ولا تقارنه في شعره تلك النظرة الاخلاقية النافذة التي امتاز بها عن سائر شعراء العربية والتي هي اساس فلسفته في [illegible] وخلاصة تأمله في طبيعة البشرية ، وخلاصة القول ان البحتري مثل صادق ونموذج تام لادب الصنعة والزخرف الذي يظهر في عصور الاستقرار كما ان المتنبي خير عنوان لادب القوة والابتكار الذي يسود في عصور الشدة والقلاقل والاضطرابات